مفهوم العلم عند الامام الغزالي

د. محمد فاروق النبهان

من الشخصيات العلمية التي تركت أثراً بارزاً في عصرها وفي العصور التي تلته الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المتوفي في طوس عام ٥٠٥هـ وكان الغزالي من أبرز علماء عصره وأكثرهم شهرة، فقد كانت حياته حافلة بالعطاء الفكري، وصاحب منهج فكري متميز الخصائص، عميق الرؤية، لا يتوقف عند حدود النظرة السطحية التي ترى في ظواهر الأشياء ما يغنيها، وانما يتوغل في أعماق النفس، فيستوحي منها رؤاه الفكرية، ويطرحها من خلال كتاباته وكتبه، معتمداً في ذلك على ما يملكه من ملكة في التفكير والتقييم والتحليل، مستنداً في ذلك إلى نصوص نقلية من القرآن الكريم والسنة الشريفة، وأقوال السلف الصالح...

ولا غرابة في أن تلقى كتبه وآراؤه عناية خاصة من علماء الإسلام قديماً وحديثاً، وأن يقع الاختلاف في تقويم تلك الآراء، من حيث ملاءمتها للمنهج الإسلامي الصحيح، وبخاصة فيما يتعلق بالسلوك والمجاهدة والانصراف إلى تربية النفس، وفق منهج خاص يقوم على أساس مغالبة النفس والابتعاد عن الناس والزهد في الدنيا.

والمنعطف البارز في حياة الغزالي هو تلك العزلة التي فرضها على نفسه، بعد حياة علمية كانت مشاركته فيها قوية وراسخة، واستطاع بفضل منهجه العلمي أن يكون موطن التقدير والاحترام لدى الأوساط العلمية، التي عرفت فضله وعلمه، واعترفت له بسعة الاطلاع والتفوق على الأقران، وبخاصة في الفترة التي لازم فيها إمام الحرمين في نيسابور، ولما سمع به الوزير نظام الملك أحضره مجلسه، وناظر علماء عصره، وظهر عليهم بقوة حجته، وعمق فكرته، وسعة اطلاعه، وتمكنه من الفلسفة والحكمة، إلى أن أصبح أستاذاً في المدرسة النظامية في بغداد، وكانت هذه المدرسة من أهم مدارس ذلك العصر وأكثرها شهرة...

إلا أن الإمام الغزالي لم يأنس بتلك المكانة والشهرة، وتطلعت نفسه إلى عالم جديد مختلف في قيمه، يعيد إلى الإنسان هدوءه النفسي واستقراره الروحي، فانصرف إلى علم جديد، وابتدأ بمخالطة رجاله، وتتبع مقاصده، والاهتمام بالعمل والسلوك، والنظر إلى الآخرة والزهد في الدنيا، والانصراف إلى الله تعالى عن طريق الإعراض عن المال والجاه والشواغل والعوائق...

كتاب إحياء علوم الدين :

ويعتبر هذا الكتاب من أهم كتب الغزالي وأكثرها شهرة، وقد كتبه في أواخر حياته بعد أن اعتزل الناس، وقال في مقدمته مبيناً رأيه في علماء زمنه، منددا بمنهجهم «الذي استحوذ عليه الشيطان واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه شغوفاً، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى ظل علم الدين مندرساً، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو جدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والافحام أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام»(١).

ثم يبين أن الذي دفعه إلى الاشتغال بتحرير كتاب الإحياء هو انصراف علماء عصره عن علم الآخرة وما درج عليه السلف الصالح، للكشف عن مناهج الأئمة المتقدمين...

وقد قسم كتابه إحياء علوم الدين إلى أربعة أرباع(٢):

ـ **الربع الأول: ربع العبادات**: ويشتمل على عشرة كتب، كتاب العلم، وكتاب قواعد العقائد، وكتاب أسرار الطهارة، وكتاب أسرار الصلاة، وكتاب أسرار الصيام، وكتاب أسرار الحج، وكتاب آداب تلاوة القرآن القرآن، الاذكار والدعوات، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات. . .

ـ **الربع الثاني: ربع العادات**: ويشتمل على عشرة كتب، وتتعلق بآداب الأكل والنكاح وأحكام الكسب والحلال والحرام، وآداب الصحبة والمعاشرة، والعزلة، وآداب السفر، والسماع والوجد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآداب المعيشة، وأخلاق النبوة. . .

ـ **الربع الثالث: ربع المهلكات**: وقد ذكر فيه كل خلق مذموم ورد القرآن بإحاطته وتزكية النفس عنه وتطهير القلب منه، وذكر كل واحد من تلك الأخلاق على حده وحقيقته وذكر سببه الذي يتولد منه والآفات التي تتولد عنها، وطرق معالجة تلك الآفات وقد اشتمل هذا الربع على عشرة كتب: منها كتاب شرح عجائب القلب، ورياضة النفس وآفات الشهوتين، وآفات اللسان، وآفات الغضب والحقد والحسد، وذم الدنيا والمال والجاه والرياء والكبر والغرور والعجب. . .

ـ **الربع الرابع: ربع المنجيات**: وقد ذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي يتقرب بها العبد إلى ربه، وذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها وثمرتها وعلامتها، وقد اشتمل هذا الربع على عشرة كتب أيضاً: التوبة، والصبر والشكر، والخوف والرجاء، والفقر والزهد، والتوحيد والتوكل، والمحبة، والشوق، والنية والصدق والاخلاص، والمراقبة والمحاسبة، والتفكر، وذكر الموت. . .

اهتمام الغزالي بالعلم :

ومن الملاحظات الدالة على اهتمام الإمام الغزالي بالعلم اختياره لكي يكون كتاب العلم هو الكتاب الأول من الربع الأول من كتابه الإحياء، وقسمه إلى سبعة أبواب، تحدث فيها عن

فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل، وفرض العين والكفاية من العلوم وما يعتبر من علوم الدين وما لا يعتبر من العلم المذموم، وآداب المناظرة وآداب المعلم والمتعلم، وآفات العلم والعلماء، والعقل وفضله وأقسامه وماجاء فيه من الأخبار(٣).

وقد علل ذلك التصدير بالعلم للكشف عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله ﷺ الأعيان بطلبه، في قوله طلب العلم فريضة على كل مسلم، وللتمييز بين العلم النافع والعلم الضار، ولانخداع أهل العصر بلامع السراب، واقتناعهم من العلوم بالقشر عن اللباب»(٤).

مفهوم الفضل عند الغزالي :

والعلم عند الغزالي(٥) فضيلة في حد ذاته من غير اضافة، لأنه وصف كمال الله تعالى، ولا تستعمل الفضيلة إلا في حالة تشارك شيئين في أمر واختصاص أحدهما بمزيد على الآخر، فيما يؤدي إلى كمال ذلك الشيء، ولهذا تختلف الزيادة باختلاف أهميتها بالنسبة للشيء، ولا تطلق كلمة الفضل ما لم تكن الزيادة دالة على الكمال، كشدة العدو بالنسبة للفرس يعتبر فضيلة، وليست فضيلة بالنسبة لغيرها. . .

وإذا كانت الأشياء النفيسة المرغوب فيها مطلوبة، فإن بعضها مطلوب لذاته، وبعضها لغيره، فإن العلم مطلوب لذاته ولغيره معاً(٦)، فهو لذاته وهو وسيلة إلى السعادة في الآخرة، لأن ذلك الهدف لا يتحقق إلا عن طريق العمل والعلم. . .

معيار الشرف عند الغزالي :

ويرى الغزالي أن العلم من أشرف الصناعات، لأن شرف الصناعة يعرف بثلاثة أمور(٧):

● **الغريزة**: ويتوصل بها إلى معرفة فضل العلوم العقلية على اللغوية، لأن الحكمة تدرك بالعقل، واللغة تدرك بالسمع، والعقل أشرف من السمع.

- **النفع**: الزراعة أفضل من الصياغة، لأن نفع الزراعة للإنسان أكبر وأوسع، لأنها من الضروريات.

- **المحل**: الصياغة أفضل من الدباغة، لأن محل الصياغة الذهب، ومحل الدباغة جلد الميتة...

وتعتبر العلوم الدينية من أشرف الصناعات، لأنها تدرك بطريق العقل، والعقل أشرف صفات الإنسان، لأن به تقبل أمانة الله، ولا يستراب بعموم نفع العلوم الدينية لأن ثمرتها ونفعها سعادة الآخرة، أما شرف محلها فهو غير خاف لأن المعلم ينصرف إلى قلوب البشر ونفوسهم، والإنسان أشرف موجود على الأرض وقلبه أشرف جزء من جواهر الإنسان، ومهمة المعلم تتمثل في تجلية القلب وتطهيره(٨)...

وهذا التحليل المنطقي والعقلي لفضل العلم وشرفه يؤكد لنا منهج الإمام الغزالي في التفكير العلمي الذي يعتمد القياس والتدرج من الفروع إلى الأصول، ومن الجزئيات إلى الكليات، وهو منهج رياضي فلسفي يعتمد على الانتقال المنطقي من جزئية مسلم بها إلى جزئية أخرى، لكي يصل الإنسان إلى الحقيقة...

ومن هنا تبرز أهمية «الغزالي» كمفكر اسلامي أثرى الفكر الإسلامي بمنهج متميز المعالم.

ولا شك أن ما طرحه الغزالي في موطن تعريفه بفضل العلم من أن الفضل لا يعني الزيادة بالمفهوم الكمي، وإنما يعني الزيادة الدالة على الكمال، أو بصورة أدق الاختصاص الذي يتميز به أحد الطرفين على الآخر، بما يدل على أهمية ذلك الاختصاص بالنسبة للشيء، كالعدو بالنسبة للفرس، والجمال بالنسبة للمرأة، والشجاعة بالنسبة للرجل، والخصوبة بالنسبة للأرض، والرائحة بالنسبة للورد، والثمرة بالنسبة للشجرة، وهكذا يكون مفهوم الفضل مرتبطاً بالاختصاص والتميز الذي يفيد معنى الكمال...

وفي مجال الحديث عن شرف العلم يطرح الغزالي رأيه المنطقي، بأسباب الشرف بالنسبة للصناعات، وهي الغريزة والنفع والمحل، ومن البدهي أن يكون العقل أشرف من السمع،

وينتج عنه أن ما يدركه العقل أشرف مما يدركه السمع، ولما كانت الحكمة تدرك بالعقل فهي أشرف من اللغة التي تدرك بالسمع...

ثم يضع معياراً آخر وهو «عموم النفع»، فما اشتد نفعه وقويت الحاجة إليه، يكون أفضل مما قل نفعه وضعفت الحاجة إليه، وهكذا تكون الزراعة أفضل من الصياغة، لأن الناس قد تستغني عن الصياغة ولكنها لا يمكن أن تستغني عن الزراعة، لأن استمرار حياة الإنسان ترتبط باستمرار الزراعة، ويمكننا أن نضع معياراً منطلقاً من هذا المنطق العقلي، نحدد من خلاله شرف الصناعات من حيث الحاجة إليها، وكلما قويت الحاجة وعمت الفائدة اتسع مفهوم الشرف، وأعطى بعده الانساني من حيث الربط المحكم بين الشرف وحاجة الناس، وهذه النظرة تدفعنا إلى إعادة النظر في كثير من القيم الإجتماعية السائدة التي ترتب الصناعات بحسب مردودها المادي، فتمتهن أحياناً بعض الصناعات الضرورية للإنسان لأن مردودها ضعيف، وتضع اعتباراً خاصاً لمهن أخرى لا يحتاج إليها الإنسان ولا يشعر بأهميتها في حياته...

ثم ينتقل إلى معيار ثالث وهو المحل، فما كان محله الذهب أفضل مما كان محله جلد الميتة، وبالتالي فإن ما كان محله الإنسان لا يمكن أن يكون مماثلاً لما كان محله الحيوان.

وأخيراً يصل إلى النتيجة التي يقررها منذ البداية وهي أن العلوم الدينية أشرف الصناعات لأن العلم موطنه العقل، والعقل أشرف صفات الإنسان، والإنسان أشرف المخلوقات، وتنصرف مهمة العلوم الدينية إلى تطهير القلب، والقلب أشرف جزء من جسم الإنسان، وبهذا الاعتبار يصبح العلم الذي ينصرف إلى تطهير النفس والقلب من أشرف العلوم الأخرى، والعلوم من أشرف الصناعات لعموم نفعها من حيث السعادة الأخروية، ولشرف محلها الذي هو القلب والعقل...

حكم تعلم العلم :

يرى الغزالي أن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل، وتعليمه إفادة للأفضل، وذلك لأن أعظم الأشياء بالنسبة للآدمى السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها، ولا يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل، وهكذا يصبح العلم واجباً على كل آدمي. . .

ويكون العلم فرض عين أو فرض كفاية بحسب أهميته بالنسبة للإنسان، ومدى الحاجة إليه، ونظراً إلى أن الإنسان البالغ العاقل مكلف بالعمل، فإن من واجبه أن يتعلم ما هو مكلف به من اعتقاد وفعل وترك، ويعتبر هذا العلم فرض عين. . .

فإذا بلغ الإنسان العاقل فأول ما يجب عليه تعلم كلمتي الشهادة وفهم معناهما، ولا يجب عليه كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحرير الأدلة، ويكفيه أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس، ويحصل ذلك بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان. . .

أما الفعل فإن المكلف إذا دخل عليه الوقت وجب عليه تعلم ما يجب عليه أداؤه، فإذا كان الوقت لا يتسع لتمام التعلم والعمل لخروج الوقت فالظاهر أنه يجب عليه تقديم التعلم على الوقت، وقيل لا يجب العلم إلا بعد وجوب العمل. . .

وأما الترك فيجب تعلم ذلك بحسب ما يتجدد في الحال، ولا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من الكلام، ولا على الأعمى تعلم ما يحرم من النظر.

كما يجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك فيما يخطر له من الاعتقادات، أو فيما يمكن أن يلقي إليه عن طريق تلقينه الحق، بحيث يكون متمكناً من دفع الباطل. . .

أما العلم الذي يعتبر فرض كفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا، كالطب فهو ضروري في حاجة بقاء الابدان، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا ويدخل ضمن هذا الواجب الكفائي تعلم كل العلوم التي يحتاج إليها المجتمع، ويدخل فيها تعلم أصول الصناعات، ولو خلا البلد عمن يقوم ببعض ما يحتاج إليه أهل ذلك البلد أثم الجميع(٩).

ومن الملاحظ أن العلم الذي يعتبره «الغزالي» فرض عين: يتعلق بالعلم الذي يمكن صاحبه من أداء واجباته الدينية، في مجال الاعتقاد والعمل، وذلك لأن العمل لا يتوصل إليه إلا بالعلم بكيفية ذلك العلم، بحيث يكون أداؤه صحيحاً، إذ لا يمكن تبرير الخطأ في العمل بالجهل، لأن الجهل لا يعتبر في نظر الإسلام عذراً مبيحاً للانحراف، ولهذا فإنه يعتبر القدر الضروري من العلم فرض عين على كل مكلف، لأن التكليف بالعمل يوجب العلم به، ولا يقصد «الغزالي» من هذا العلم وبخاصة في مجال الاعتقاد التمكن من البحث والنظر وتحرير الأدلة، فذلك مما يخرج عن دائرة الامكان، لأنه يحتاج إلى قدرة لا تتوفر لدى الإنسان الذي لم يتفرغ للعلم . . .

ونقل الامام «الغزالي» بعد ذكر العلم الذي يعتبره فرض عين اختلاف العلماء فيه(١٠) فقال المتكلمون: هو علم الكلام لأن به يدرك التوحيد، وقال الفقهاء: هو علم الفقه لأن به تعرف العبادات والحلال والحرام، وما يحرم في المعاملات وما يحل، وقال المفسرون والمحدثون: هو علم الكتاب والسنة لأن بها يتوصل إلى العلوم كلها.

ويبدو أن «الغزالي» لا يأخذ بهذه الأقوال، لأنه يرى أن العلم الذي يعتبر فرض عين هو علم المعاملة التي كلف العبد العمل بها في مجال الاعتقاد والفعل والترك. لأن من المستحيل أن يكون العلم الذي يعتبر فرض عين هو معرفة علم الكلام أو علم الفقه أو علم التفسير أو الحديث، لأن ذلك يخرج عن حدود الطاقة البشرية، إلا إذا كان القدر المطلوب لا يتجاوز

مقدار معرفة الكليات الأساسية في مجال العقيدة والمعاملة، وهذا القدر كاف لمعرفة كيفية العمل...

العلوم المحمودة والعلوم المذمومة :

يرى «الغزالي» أن العلوم إما أن تكون محمودة أو مذمومة أو مباحة، ويرتبط ذلك بحسب ارتباط تلك العلوم بالمجتمع، وبأثرها فيه من حيث مساهمتها في تحقيق مصالحه، أو في إلحاق أضرار به، أو من حيث انعدام الفائدة منها...

ويقدم «الغزالي» في هذا المجال معياراً موضوعياً للحكم على العلم من حيث كونه محموداً أو مذموماً، وهذا الحكم لا ينطلق من صفة ذاتية في العلم الذي يعتبر ضمن العلوم المذمومة، لأن العلم لا يمكن أن يكون مذموماً بأي حال من الأحوال، لأنه معرفة الشيء على ما هو عليه، والعلم بهذه الصفة من صفات الله تعالى، ولذلك لا يمكن للعلم بهذا الاعتبار أن يكون مذموماً لعينه، وإنما تلحقه صفة الذم من حيث أثره في العباد...

والعلوم المحمودة قسمان :

الأول: العلوم الشرعية: وهي العلوم التي استفيدت من الأنبياء مما لا يرشد العقل إليه أو التجربة، أو السماع، وتشمل أربعة أقسام:

١ ـ الأصول :

الأصول أربعة: كتاب الله وسنة رسوله، واجماع الأمة وآثار الصحابة، ويستدرك «الغزالي» موضحاً موقع الاجماع والآثار من الأصول بأنها أصل من حيث دلالتها على السنة لأن الصحابة شاهدوا الوحي والتنزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب عن غيرهم، لذلك رأى العلماء الاقتداء بهم والتمسك بآثارهم...

٢ ـ الفروع :

وتشمل مافهم من تلك الأصول لا بموجب ألفاظها بل بمعان تنبهت لها العقول فاتسع بسببها الفهم، حتى فهم من اللفظ به غيره، ولعل الغزالي يقصد بالفروع ما استنبط عن طريق المصادر الاجتهادية عن طريق القياس والاستحسان ووفق منهج الدلالات اللفظية التي تدخل ضمن اختصاص علماء أصول الفقه.

٣ ـ المقدمات :

وتشمل العلوم غير الشرعية التي تجرى مجرى الآلات التي لا يمكن فهم النصوص الشرعية إلا عن طريقها، كعلم اللغة والنحو، وهما آلة لعلم كتاب الله وسنة رسوله، لأن القرآن نزل بلغة عربية، ولا يمكن فهم القرآن إلا عن طريق فهم اللغة العربية، فاللغة ليست من العلوم الشرعية، ولكنها آلة لفهم كتاب الله، ولعل هذا الفهم الدقيق لمدى ارتباط اللغة والنحو بالقرآن والسنة من أهم أسباب اهتمام علماء المسلمين بعلم اللغة والنحو لكي يتمكنوا من فهم كتاب الله، لأن الحركة العلمية التي شهدها فجر تاريخنا الإسلامي خلال القرون الهجرية الأولى كان منطلقها الأساسي وباعثها الحقيقي هو التمكن من فهم أحكام الشريعة، أصولاً وفروعاً، مصادر واحكاماً...

٤ ـ المتممات :

ويشمل هذا القسم جميع العلوم التي تمكن المسلم من معرفة القرآن من حيث اللفظ كعلم القراءات ومخارج الحروف، أو المعنى كالتفسير، أو الحكم كمعرفة الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والنص والظاهر، كما يدخل ضمن هذا القسم علوم السنة المتعلقة بمعرفة الرواة، وأسمائهم وأنسابهم وصفاتهم وأحوالهم، لأن ذلك يمكن المسلم من التأكد من سلامة الحديث من حيث صحة الإسناد، وعدالة الرواة، ودقتهم فيما يروون من أحاديث وآثار...

العلوم المذمومة :

يرى «الغزالي» أن العلم لا يمكن أن يكون مذموماً لذاته، وإنما يذم في حق العباد لما يمكن أن يؤدي إليه من ضرر لصاحبه أو لغيره، ويعرض أمثلة للعلوم المذمومة: كعلم السحر والطلسمات وعلم النجوم...

وأسباب اطلاق صفة العلوم المذمومة ما يلي:(١١)

أولاً: لأنه يؤدي إلى ضرر بصاحبه: ويدخل ضمن هذا النوع علم النجوم، فهو غير مذموم لذاته، وهو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب قال تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾، أما القسم الثاني فيعتمد على الاستدلال على الحوادث بالأسباب، وهو معرفة لمجاري سنة الله تعالى وعادته في خلقه، وأما ضرره فهو أن بعض الناس إذا ربطت الحوادث بالنجوم اعتقدت أن الكواكب مؤثرة ومدبرة، لأنها كواكب سماوية، وعندئذ يرجون الخير والشر منها، فيؤدي ذلك إلى الانحراف في العقيدة.

ثانياً: لأنه يؤدي إلى ضرر بالغير: ويدخل ضمن هذا القسم علم السحر، ويرى «الغزالي» أن السحر حق لأن القرآن شهد له، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيُتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويُرصد به وقت مخصوص من المطالع، وتُقرن به كلمات يتلفظ بها في الكفر والفحش المخالف للشرع، وهذه الوسيلة لا تصلح إلا للإضرار بالناس، والوسيلة إلى الشر شر...

ثالثاً: لأنه يعتمد على التخمين المطلق: مثل علم النجوم، والحكم به حكم بالجهل لأنه قد يصادف معرفة بعض الأسباب، إلا أن النتائج لا يمكن أن تكون صحيحة، لأن الإنسان لا يمكنه أن يطلع على حقائق الأمور...

رابعاً: لعدم الفائدة منه: والبحث في مثل تلك العلوم يعتبر خوضاً في فضول لا يغني، ويضيع عمر الإنسان في غير فائدة، ويقول «الغزالي» في موضوع الخوض في النجوم: إنه

اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة، فإن ماقدر كائن، والاحتراز منه غير ممكن»(١٢).

ويرى «الغزالي» أن من العلوم المذمومة الخوض في علم لا يستفيد منه الخائض فائدة علم، كالبحث عن الأسرار الالهية(١٣)، التي يتطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها، ولم يستقلوا بها ولذلك يجب كف الناس عن البحث عنها، وردهم إلى ما نطق الشرع به، ثم يقول في مجال توجيه النصح(١٤).

واقتصر على اتباع السنة، فالسلامة في الاتباع، والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أنى أبحث عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه... وكم من شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الأخرة ان لم يتداركك الله برحمته»...

وان هذا المعيار الذي وضعه «الغزالي» للعلوم المحمودة والعلوم المذمومة جدير بالاهتمام والدراسة، لأن العلم الذي يؤدي إلى الحاق الضرر بصاحبه أو بالمجتمع جدير بأن يكون علماً مذموماً، وإذا ثبت الضرر بصاحبه أو بالمجتمع ثبتت الحرمة، لأن الحرمة مرتبطة بالضرر، إذ لا يمكن للعلم أن يكون مباحاً، لما يترتب عليه من ضرر، وهو هنا محرم لما يترتب عليه من أضرار، سواء كانت تلك الأضرار مادية كالحاق الضرر بمصالح المجتمع، أو كان الضرر مرتبطاً بتشجيع الانحراف العقائدي، فإذا ثبت أن علماً من العلوم يؤدي ـ كما يقول الغزالي ـ إلى أن يعتقد الجهلة والعوام بأن الكواكب مؤثرة ومدبرة يرجى الخير منها فإن ذلك مما يدخل ضمن الضرر المؤدي إلى الحرمة...

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمعيار الأخر وهو «الفائدة»، فإن العلم له غاية، فإذا ثبت أن تلك الغاية غير مفيدة، فإن ذلك العلم يعتبر مذموماً، لأنه يسهم في ضياع الوقت والانصراف إليه عبث، ويخلص «الغزالي» من هذا إلى القول بأن البحث عن الأسرار الالهية مما يختص به الفلاسفة والمتكلمون يدخل ضمن العلم المذموم، لانعدام الفائدة منه، فضلاً عما يؤدي إليه من ضرر في العقيدة(١٥).

أسباب التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية :

يرى «الغزالي» أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسامي المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض الفاسدة إلى معان غير ما أراده السلف الصالح، ونقل جملة ألفاظ هي أسام محمودة، ولكنها نقلت إلى معان مذمومة، تنفر القلوب منها.. ومن تلك الألفاظ: الفقه، والعلم والتوحيد، والتذكير(١٦)...

ففي مجال «**الفقه**» فقد تصرفوا فيه بالتخصيص، وخصصوه بمعرفة الفروع في الفتاوي والوقوف على دقائق عللها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، وكان اسم الفقه يطلق في العصر الأول على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال...

وفي مجال «**العلم**» فقد كان يطلق على العلم بالله وبآياته وأفعاله، وقد تصرفوا فيه بالتخصيص حتى أصبح يطلق على من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية.

وفي مجال «**التوحيد**» فقد كان العلم بالقرآن هو العلم، وكان التوحيد هو أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، وأصبح فيما بعد عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطريق مناقضات الخصوم، والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات، مع أن منهج السلف كان قائماً على أساس الانكار على من يستعمل أسلوب الجدل...

وفي مجال «**الذكر**»(١٧) فقد ورد الثناء على مجالس الذكر، وقال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾، إلا أن لفظ الذكر قد بدل وغيّر من ذلك المعنى المراد بالقرآن، إلى معاني جديدة تطلق على ما يقوم به الوعاظ من قصص وأشعار وشطح وطامات...

والقصص بدعة وقد ورد النهي عن الجلوس إلى القصاصين، لأنهم ينقلون القصص التي تخرج عن نطاق القصص الواردة في القرآن، مما يضر ولا ينفع، وبعض تلك القصص من القصص الموضوعة التي يستجيز بعضهم وضعها ترغيباً في الطاعات، مع أن في الصدق مندوحة عن الكذب...

أما الشعر فإن أكثر ما اعتاده الوعاظ ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق، مما يؤدي بالعوام المشحونة بواطنهم بالشهوات إلى استعمال نيران الشهوات، وهذا يؤدي إلى الفساد. . .

وأما الشطح(١٨) فيطلق على ما يدعيه العوام من العشق مع الله والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، مما يستلذه الطبع، وتألف إليه النفس الضعيفة ويؤدى إلى القول بتزكية النفس والوصول إلى المقامات والأحوال، وأحياناً يكون الشطح عن طريق صدور كلمات غير مفهومة، ناتجة عن تخبط في العقل وتشويش في الخيال، قد يفهمها صاحبها ولكنه لا يملك القدرة على تفهيمها وايرادها، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أن يشوش القلب ويدهش العقول ويحير الأذهان. . .

وأخيراً يتحدث «الغزالي» عن الطامات(١٩) التي يراد بها صرف الفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، كما يفعل الباطنية في التأويلات، وهذا حرام وضرره عظيم، لأن الألفاظ «إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله وكلام رسوله ﷺ »، وبهذا الطريق الذي تألفه النفوس وتستلذه توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة. . .

واللفظ الخامس الذي يرى «الغزالي» أن معناه قد تغير **«لفظ الحكمة»**، وكانت الحكمة هي التي اثنى الله عز وجل عليها فقال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾، ثم أصبحت الحكمة تطلق على الطبيب والشاعر والمنجم، ثم يدعو في نهاية هذا البحث إلى أهمية الاقتداء بالسلف لرفع الالتباس الذي وقع بالنسبة لألفاظ العلوم ويصف ما أكب الناس عليه بأن أكثره مبتدع ومحدث. . .

والامام «الغزالي» من خلال هذه الرؤية الموضوعية يقدم نفسه كإمام مجدد للفكر

الإسلامي، مصحح لكثير مما التبس على المجتمع الإسلامي من مفاهيم وألفاظ، تغيرت دلالتها مع تغير الزمن، وتبدلت طبيعتها مع طبيعة ممارسة المجتمع لتلك المفاهيم، حتى أصبحت صورة ما عليه المجتمع مغايرة كل المغايرة لما كان عليه السلف، من التزام رصين بالمفاهيم الصحيحة لدلالات الألفاظ والمصطلحات، ومن حرص واضح على أن تكون تلك الدلالات منسجمة مع عقيدة الإسلام وتعاليمه...

«فالغزالي» لا ينظر لمصطلحات الألفاظ من خلال ما شاع في المجتمع من مفاهيم مرتبطة بها، ولا يريد لتلك الأسماء الدالة على آفاق تتجاوز حدود النظرة الضيقة أن تكون أسيرة مفاهيم اجتماعية سائدة...

ان «العلم» في رأي الغزالي ليس هو المناظرة مع الخصوم في مسائل فقهية، والفقه ليس هو معرفة الفروع، والتوحيد ليس هو علم الكلام ومعرفة طريق المجادلة والتشدق بالأسئلة، ومجالس الذكر ليست هي مجالس القصاصين والشعراء وأصحاب الشطحات الذين يتشدقون بكلمات العشق الالهي والوصال والتلاعب الجاهل بمعاني الألفاظ، وصرفها عن ظواهرها إلى معان باطنية تفتح الأبواب أمام الانحراف والضلال، كل ذلك يعرضه «الامام الغزالي» وينبه إلى خطره، ويؤكد أن هذا المنهج مخالف كل المخالفة لمنهج السلف **الصالح** في القرن الأول...

ولا شك أن «الامام الغزالي» الذي حسب بعض المتصوفة المنحرفين أن نقده للمنهج العقلي الذي يعتمد عليه علماء الكلام، ونقضه لأدلة الفلاسفة، ومناصرته لمذهب المهتمين بعلوم الآخرة، وبقضايا السلوك، سوف تكون دعماً لمنهجهم في الانحراف، وتأكيداً لسلامة ما يقدمونه من مفاهيم، إلا أن «الغزالي» المتمكن من الرؤية السليمة لمنهج الاسلام في التفكير، وقف منددا بتلك الانحرافات، محذراً من خطورة تلك الظواهر الطافية التي تشوه صفاء الفكر الاسلامي ونقاء العقيدة الإسلامية...

وبهذا المنهج يؤكد «الامام الغزالي» أنه لا يناصب العقل العداء، ولا يتحالف مع أدعياء

المعرفة والعلم من الجهلة والمنحرفين، وإنما يعيد الأمر إلى نصابه ويقدم المنهج الإسلامي في صورته النقية الصافية التي تقوم على أساس الاعتراف بخصائص النفس الإنسانية، وبكامل تطلعاتها وامكاناتها الوجدانية.

■ ■ ■

الهوامش :

(١) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢.
(٢) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢ ـ ٣.
(٣) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٤.
(٤) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ٢.
(٥) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٢.
(٦) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٢.
(٧) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٣.
(٧) انظر إحياء علوم الدين الجزء الأول ص ١٣
(٩) الإحياء ج ١ ص ١٢.
(١٠) الإحياء ج ١ ص ١٤.
(١١) انظر الإحياء ج ١ ص ٢٩ ـ ٣٠.
(١٢) انظر إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٠.
(١٣) انظر إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣٠.
(١٤) انظر إحياء علوم الدين ج ١ ص ٣١.
(١٥) الإحياء ج ١ ص ٣١ ـ ٣٢.
(١٦) الإحياء ج ١ ص ٣٢.
(١٧) الإحياء ج ١ ص ٣٤.
(١٨) الإحياء ج ١ ص ٣٦.
(١٩) الإحياء ج ١ ص ٣٧.